د . حنفي بن عيسى

بعض جوانب من التزوير في الانتاج الفكري

سوف اعالج موضوع التزوير اولا ، على مستوى الاديب المنتج ، ثم على مستوى الناشر .

اولا : عندما نتناول موضوع التزوير في الانتاج الفكري نتساءل بادىء ذي بدء عن مدلول هذه الكلمة . فالتزوير يعني ، أول ما يعني ، الادلاء بشهادة الزور . المسألة اذن متعلقة بالشهادة : فاما ان يصف الاديب الامور كما شاهدها من غير تدليس ، واما ان يتنكر للحق ، ويتبع الباطل ، فيدجل ، ويحرف الكلم عن مواضعه. والمسالة بعد هذا متعلقة بالشجاعة ، والالتزام ببعض المبادىء ، والايمان ، والصبر على المكاره . وذلك ان الادلاء بالشهادة ليس بالامر السهل ، في عالم كثرت فيه المغريات والفتن والمذاهب ، فبات لزاما على الانسان ان يرجع الى ضميره في كل ما يقول ، لكيلا يبيع الكلمة بابخس الاثمان ، ولكيلا يتعصب لاخيه ان ظالما او مظلوما ، ولكيلا يتحيز للاراء والمذاهب ، سعيا وراء المجد الزائل ، او طمعا في نيل المنصب المرموق .

وبناء على هذا ، فان الشرط الاساسي بالنسبة للاديب او المفكر، هو ان يدلي بشهادته في ما يراه ويسمعه ويحسه ، وان تكون هذه الشهادة خالصة لوجه الحق ، وان يكون صادقا في ما يقول . وذلك ان الاديب يتنازعه دائما ميلان قويان : الميل للصدق ، والميل للكذب .

وربما صح للبعض ان يقولوا بان الاديب ميال بطبيعته للتزوير والكذب ، والدليل على ذلك ان القرآن الكريم حذر من دجل الشعراء عندما قال : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » كما ميز « الذين هم بشهاداتهم قائمون » واثنى على « الذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما » وحث على الصدق في الشهادة : « واجتنبوا قول الزور » .

والحقيقة ان تعاطي صناعة الادب مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة الا وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تسول له نفسه ان يتشبه بالانبياء ، والمرسلين ، وان يدعي بان له صلة بالغيب ، وانه يدرك ببصيرته مالا يدركه الناس بابصارهم ، فكم من اديب ، وكم من مفكر ، يعتقد اليوم في قرارة نفسه بانه « يحمل رسالة » لا تقل خطورة عن الرسالة التي حملها من قبله الرسل والانبياء ، وان بني قومه اذا تنكروا له ولم يعرفوا قدره ، فلان النبي ـ كما يقول المثل الفرنسي ـ لا ينجح ابدا في نشر الدعوة بين ابناء قومه .

ولا ينبغي ان ننسى بعد هذا ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولها اصل الهي . وهذا ما يستفاد من قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » .. فلا عجب اذا وجدنا من ينسب الى الكلمة قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر. وقديما قيل « وان من البيان لسحرا » وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب ، يمكن به ان يكشف عن امور قد تضر ابناء قومه او تنفعهم .

وقد جاء في « العمدة » لابن رشيق ما يلي :

« وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر ، اتت القبائل فهناتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لانه (اي الشاعر) حماية لاعراضهم ، وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، وشاعر ينبغ فيهم ، او فرس تنتج » .

فالاديب اذن عظيم القدر بين بني قومه من جهة ، ولكنه من جهة اخرى مرهوب الجانب ، ومظنة للسوء ، لانه معرض لان تنزلق به القدم في دروب الفكر الملتوية ، فيتاجر بالكلمة ويؤول به الامر الى الحالة التي وصفها المتنبي بقوله :

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

وبذلك يصبح كغيره من المشعوذين ، ومعنى هذا ان تسخير القلم في الافتراء وتزوير الحقائق لا يقل مضرة عن الشعوذة والتدجيل وربما صح القول بعد هذا ، بان تزوير الحقائق ، اذا تعمده الكاتب لغرض في نفسه ، وبقصد تضليل بني قومه ، ليس خطرا على مستقبل الثقافة فحسب ، بل هو كذلك جريمة نكراء يجب ان يعاقب عليها .

على انه لا يجوز ادانة الكاتب والمفكر بمثل هذه السهولة. وعندما نسمع الشاعر البحتري يقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

عندما نسمعه يقول هذا ، قد نتوهم ان الكذب والتزوير والافتراء من الصفات اللاصقة بالشعر ، لان الشاعر لا يحكم العقل ولا المنطق ، بل ينساق للعاطفة ويستجيب لها ، ولذلك قيل بان اصدق الشعر اكذبه ، والحقيقة ان كلام البحتري يحتاج الى تاويل ، والى تفسير على ضوء نظرية الاعلام . فهذه النظرية تقول بان الخبر ، مهما توخينا الدقة في نقله وتبليغه ، لابد من ان يطرأ عليه شيء من التغيير (او التزوير) .

والسبب في ذلك ان طبيعة الخبر تقتضي ان يكون مجهولا لدى المخاطب ، ولو كان معروفا لديه ، لكان من العبث توصيله اليه . فالنحاة مثلا يشترطون في الخبر ان يكون نكرة ، ولا يجوز عندهم ان يكون معرفة .ويمكن القول بان الخبر يزداد اهمية لدى السامع او القارىء على قدر جهلهما به . والسؤال المطروح بعد هذا هو السؤال التالي : هل الاخبار التي تم نقلها من مكان معين هي نفس الاخبار التي وصلت الى مكان آخر ؟ ام انه يطرأ عليها في الطريق شيء من التغيير والتزوير ؟

ان الاديب ان هو الا صلة الوصل بين الواقع بما يجد فيه من اشياء واحداث وصفات ، وبين القارىء الذي يتلقى عن ذلك الواقع صورة صادقة او كاذبة ، واضحة او باهتة ، أمينة او بعيدة كل البعد عن الاصل الذي اشتقت منه . ولما كانت هذه الاشياء والاحداث والصفات مجهولة لدى القارىء اي ان ذهنه خال منها ، فان الاديب سوف يجد نفسه ـ بصورة مقصودة او غير مقصودة ـ ميالا الى التغيير في بعض العناصر المؤلفة لها ، بقصد تشويق القارىء ، واثارة اهتمامه ، وجعله ينسى وطأة الواقع البغيض ويتشوق الى المستقبل المامول . فهل نلوم الاديب اذ ينمق الكلام ويزخرفه ويضيف بفنه واسلوبه لمسات سحرية تجعلنا ننسى الهموم ، فيعاودنا الامل بعد اليأس ؟ هل نسمي ذلك تزويرا ؟ وهل نقول عنه بانه كذاب بعدما جعلنا نتوهم الجمال والهناء والسعادة ، حيث لا يوجد سوى القبح والهم والشقاء ؟ الحقيقة ان الاديب حتى

ولو فرضنا انه يكذب ، الا ان كذبه مقبول ومستساغ ، بل هو كذب يرتاح له القارىء ، لانه ينقله الى عالم اقل بشاعة واكثر عدلا . واذا كان الاديب لا يحكم المنطق احيانا ، ويرجح العاطفة على العقل فـلان العالم الدنيوي الذي نعيش فيه لا يخضع دائما للمعقـول ، ولان الاحاسيس المرهفة والهواجس الخفية لا يمكن ان تصاغ في قوالب المنطق الجامدة . ولهذا يمكـن القول بان « كذب » الشعراء ، على حد تعبير البحتري ، مقبول ، وان « التزوير » في الاعمال الادبية مقبـول ايضا اذا كان لاغراض بلاغية ، ومنحصرا في نطاق الصناعة اللفظيـة وكان القصد من ذلك كله هو الترفيه عـن القارىء و « الامتـاع والمؤانسة » كما قال ابو حيان التوحيدي .

لم يتسع نطاق التزوير عند القدامى ، لان طريقـة التسجيل الوحيـدة عندهم كانت هي الكتابة باليد . غير ان الكتابة باليد ان هي الا طريقة مـن طرق التسجيل . وكلما اهتدى الانسان الى طريقـة توفر له الوقت والجهد والنفقات ، فانه يتخلى عـن الطريقة القديمة. فلقد يستعيض عـن الكتابة بنوع مـن انواع الاختزال ، او بالتسجيل على شريط ، او بالضرب على الالة الراقنة او بالسحب على ورق الحرير ، او بالطباعة ، وما الى ذلك من طرق الاستنساخ الاخرى . وقد يستغنى تماما عـن الكتابة بنفسه ، فيستعين بغيره مـن الكتبة لينوبوا منابه .

على ان الكتابة باليد لها فضل على سائر الطرق الاخـرى . وذلك انها ـ بعد الصوت ـ الصق طرق التبليغ بنفس الانسان . ان القلم الذي نمسك به بين الانامل ان هو في الواقع الا امتداد لليد . انـه ـ وهو يخط على الورق ـ يصدر بصورة مباشرة عـن القلـب والعقل معا . ولذلك كان للمخطوط عند مختلف الشعوب حرمته بـل قدسيته ، ولذلك ايضا نجد ان بعض الوثائق الهامة لا يمكـن ان تعتمد الا اذا كانت بخط اليد ، ولعل السبب هـو ان الخـط ، بتقلباته وتموجاته وتبدلاته ، مرآة لشخصية صاحبه ، فمن الصعب اذن تزويره . اما الكتابة بحروف المطبعة ، فانها تنسج على منـوال واحد ، لان جميع الحروف واحدة ، ولذلك يصبـح التـزوير ممكنـا .

وليس معنى ذلك ان القدامى لم يعانوا من آفات التزوير . فلقد كان الادباء في مختلف العصور يشتكون دائما من الانتحال والسرقـة والسطو على انتاجهم . غير ان الداء لم يستفحل الا في العصـور الحديثة عندما دخل الانتاج الفكري مرحلة التصنيع .

ان انتاج الاديب يظل في حكم العدم اذا بقي حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . وذلك ان انتاجه في حاجة الى عملية لاحقة تخرجه من حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

غير ان هذاالانتاج لا يصل الى القارىء الا بعد المرور بمراحل ، وفي كل مرحلة منها يتعرض للتغيير، والتحريف، والتشويه ،والتزوير، والنقصان ، وأحيانا للنسيان والاهمال فيادراج المكاتب .

والتزوير يقع أول ما يقع على يد الرقيب الذي يقيد حريـة الكاتب في التعبير عن آرائه ، ويمارس نوعا من الوصاية على الثقافـة ويضع معايير لتقييم الانتاج لا علاقة لها بالفكر . فكم من كتاب حكم عليه بالاعدام ، وحرم منه القراء ربما الى الابد ، بدعوى ان صاحبه تقدمي أو رجعي ، أو يميني أو يساري ، أو مستهتر بالاخلاق ، او مناوىء للنظام السياسي القائم .. وقد يمنع الكتاب لا لسبب سوى لان الرقيب لم يفهمه حق الفهم ، فيضع عليه العلامة الحمراء ، لان ذلك أسلم على أية حال ، وادعى للراحة والاطمئنان .

والحقيقة أن « الرجعية » و « التقدمية » و « النزعةاليمينية» و « النزعة اليسـارية » مـن الشـعارات السـياسية التـي لا يجـوز ان تتخذ معيارا في تقييم الانتاج الفكـري . ومما لا يناقش فيه أحد ان الادب أصبح شديد الصلة بالسياسة ، وأن الاديب الحق هو من يلتزم بالدفاع عن قضايا الانسان العادلة حيثما كان .. هـذا صحيح ، ولا يناقش فيه أحد .. أما وصف الاديب بانه « رجعي »فهذا امر لا يخلو من القدح في شخصه . ومعنى ذلك اننا ، عوضا عن ان ننظر الى فكر الانسان وأدبه بكل تجرد وموضوعية ، فاننا ننظر الى شخصه ، ونلتمس له الهفوات . ولا يسع الاديب في مثل هذه الظروف الا ان يتخذ موقفين : فاما أن يحطم قلمه ، واما أن يمارس نوعا مـن الرقابة الذاتية أو نوعا من « التزوير الذاتي » اذا صـح التعبير ، فيستمر في الكتابة والتاليف ، ولكنه لا يعبر الا عما سيرضى عنـه الرقيب .. وعندما نقول « الرقيب » فنحن لا نعني بالضرورة شخصا معينا يجلس وراء مكتب ، يأمر وينهي ويتصرف كما يشاء في ميدان التاليف . بل نعني جميع أنواع الضغوط المادية والمعنوية التييتعرض لها المنتج من مختلف الجهات لتصرفه عن موضوع معين أو لتقترح عليه موضوعا معينا ، أو لتشعره من طرف خفي بان هذا الفصل أو ذاك من كتابه غير مناسب ، وأنه من الافضل أن يحذف ..

والادهى من كل هذا أن الاديب في كثير من الاحيان لا يختارالمرتقى الصعب ، بل ينساق وراء الحلول السهلة ، فتسول له نفسه الاقتداء بالتاجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء من أصحاب المهن الحرة . فلقد يقول في نفسه : ان مهنة الادب تستلزم من الذكـاء والعناء ما تستلزمه مهنة المهندس والطبيب ، فالى متى أظل محروما من نعم الحياة ؟.. والغريب انه يجد من المجتمع حوله تشجيعا على المضي في هذا السبيل : فأغلب القراء لا يميلون الا لما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعه بأن الكتب المبسطـة ، وروايات الجيب ، والقصص البوليسية ، ومغامرات الجواسيس ، وكتب الجنس والطبخ ، أكثرروا جا من المؤلفات التي لا يزال بعض «المتزمتين» يكتبونها ، فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والاذاعة والتلفزة سوف يشعرونه بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيـه بعض الشروط ، وكتب على نمط خاص مقرر سلفا .

اضف الى كل هذا ان الادب أصبح « مصنعا » تماما . فقـد تسربت اليه أساليب لم تكن تستخدمالا في مجال النشاط الاقتصادي، كاصدار النشرات المبسطة ، والاقتباس ، والاختصار وما الى ذلك من الاساليب الاخرى .. بل أصبحت تعقد اتفاقيات لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصلية ..

ان المبدأ الاساسي الذي ينبغي أن تتقيد به دور النشر هو احترام الشهادة التي ادلى بها الكاتب .. ينبغي أن تظل تلك الشهادة نقية طاهرة لم يمسها انس ولا جان .. غير ان ادب الارتزاق للاسف الشديد هو الادب السائد اليوم . وقل نفس الشيء بالنسبة لصنوه ونظيره ، ادب الاستهلاك ... ولذلك فان انتهاك حرمة هذه الشهادة اصبح من الامور المعتادة التي لم تعد تثير الاستغراب .

ويقع التزوير في شهادة الكاتب :

أولا ـ باستعجال الكاتب ، وفرض شروط مجحفة عليه في التعاقد ، ومطالبته بدفع المخطوط قبل موعد محدد ، مع تهديده ـ ان لم يفعل ـ بالحرمان من حقوقه ، او بفرض عقوبة ماليـة عن كل تأخير .

ثانيا ـ بالاقتباس أو باصدار نشرات مبسطة أو مختصرة ، سواء من أجل السينما أو المسرح أو التلفزة او غير ذلك من وسائل الاعلام والتبليغ . فلابد في كل هذه الحالات من استئذان المؤلف ، لكيلا يستغل اسمه في ترويج طبعة قد تكون ممسوخة ومشوهة .

ثالثا ـ بالترجمة من غير أن يستأذن المؤلف . وهنا نقع على مشكلة الفوضى السائدة في عالم الترجمة . فهذه المهنة أصبحت في أشد الحاجة الى تنظيم ، والى وضع قوانين ، لكيلا يكثر فيها الدخلاء الذينيقـوّلون المؤلفينما لم يقولوا، لانهم يجهلونأسرار هذه المهنة . وحبذا لو يتم انشاء اتحاد المترجمين العرب ، على غرار الاتحادات العربية الاخرى ، وعندئذ يتأتى للجامعة العربيـة أن تحصي الكفاءات الموجودة في هذا الميدان ، وأن تضع قائمـة الكتب التي تستحق الترجمة ، وأن تضع « الدليـل العام للترجمات الصادرة في البلاد العربية » لكيلا تتكرر الترجمة ، ولكيلا تضيع الجهود .

رابعا ـ باستخدام مطابع أكل عليها الدهر وشرب ، والاستعانة بمصححين وتقنيين غير أكفاء .. فانتاج الاديب كثيرا ما يصدر عن هذه المطابع في حالة يرثى لها ، هي حالة المسخ والتشويه . فالاخطاء المطبعية لا تعد ولا تحصى، والاسطر منقولة او «مزحلقة» عن مواضعها ، والصفحات مقلوبة الخ ..

خامسا ـ اصدار نشرات خاصة بكل بلد .. وذلك أن بعض الناشرين وأصحاب المجلات يسمحون لانفسهم باقتطاع هذا الجزء أو ذاك من المقال ، واخراجه في الثوب الذي يلائم نظام الحكم في هذا البلد أو ذاك . وهذا هو السبب في أن الباحثين الذين يتتبعون الحركة الادبية والفكرية في البلاد العربية يهتدون في أبحاثهم الى نسخ مختلفة من المقال الواحد ، فيحتارون ، ولا يدرون ما هو الاصل .

سادسا ـ بالاستهتار بحقوق المؤلف المادية والمعنوية : فشروط التعاقد بين الكاتب والناشر تملى من طرف واحد ، وليس للكاتب الا أن يذعن ويخضع لهذه الشروط ... وكم من كتاب يتفق بشأنه على أن يطبع منه ثلاثة آلاف نسخة ، في حين أن الناشر يسمح لنفسه ، من غير حسيب ولا رقيب ، بطبع أضعاف هذا العدد ، مع حرمان المؤلف من حقوقه .

لقد تبين مما سبق أن التزوير يؤدي :

اولا ـ على مستوى الكاتب ، الى تنكره لفنه ، وممارسة نوع من الرقابة الذاتية على عمله ، فيشوه بذلك انتاجه ، ويتخلى عن الصدق في الاداء ، وينساق وراء أساليب الكذب والتزوير .

ثانيا ـ على مستوى الناشر ، الى افساد العلاقة الطيبة التي كان من المفروض أن تسود بينه وبين المؤلف .
ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان التزوير يؤدي في آخر الامر الى افساد العلاقات بين الناشرين أنفسهم .

ويتخذ التزوير هنا أشكالا متعددة :

فلقد تصدر ترجمة جيدة لكتاب ، حتى اذا صادفت من القراء نجاحا كبيرا ، عمد المزور الى ادخال تعديلات طفيفة عليها، وقام بنشرها على هذه الصورة ، مدعيا بانه صنع ترجمة جديدة ، وأنه لا شيء يمنعه من أن يكرر الترجمة.

ولعل اخطر انواع التزوير هو ما درج عليه بعض قرصان النشر من استعمال مطابع الاوفست في السطو على انتاج الغير ، واخراجه مطابقا للاصل ، من غير زيادة ولا نقصان ، بقصد اخفاء هذه الجريمة النكراء . والاغرب من كل هذا أن هؤلاء يجترئون على المؤلف ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، وكأنه لا توجد قوانين لحمايته من جشعهم، أو ربما افترضوا بأن المؤلف لن يجرؤ على اقامة الدعوى عليهم أمام المحاكم بسبب التكاليف المالية ، والمماطلة في اصدار الحكم ، ومن المؤسف جدا ان نرى بعض دور النشر تسارع الى اقتناء الآلات الحديثة، لا لنشر الثقافة على أوسع نطاق ، ورفع مستواها في البلاد ، بل للاعتداء على ملكية الغير ، وتثبيط عزائم المؤلفين وخنق مواهبهم واسكات اصواتهم .

اننا نجتاز اليوم مرحلة اصبح الاهتمام فيها كبيرا بالتراث العربي الاسلامي . وكان من المفروض أن تسود روح التعاون بين دور النشر ، من أجل احياء هذا التراث الذي أصبح من التراث الانساني . الا أننا نجد أن الفوضى السائدة في هذا الباب لا نظير لها . والسبب في ذلك ان روح الارتزاق هو الذي يتحكم في جميع الخطط والمشاريع التي تضعها دور النشر . فهناك مثلا تهافت على بعض الكتب ، كالعقد الفريد ، والاغاني ، ولسان العرب ، في حين أن كتبا أخرى لا تقل عنها اهمية لم تحظ الى حد اليوم بأية التفاتة من طرف دور النشر ، واذا استمر الوضع على ما هو عليه فسوف تظل العشرات من الكتب الثمينة في طي النسيان الى الابد ، وفي ذلك خسارة كبرى للبحث العلمي .

وكان من المفروض أن لا يقع التزوير في هذا الباب ، لان نشر التراث العربي الاسلامي لا يحتاج الى ترخيص من أحد ، ولان هذا التراث لا يجوز أن يحتكره أحد . ومع ذلك فان التزوير يقع بالفعل، عندما يأخذ أحد الناشرين نسخة حققها غيره ، فيدخل على ذلك التحقيق تعديلات بسيطة ، من حيث شرح المفردات وترتيب الحواشي، ليوهم الناس بأنه قام بعمل جديد ، وان الدافع الاساسي لعمله هو احياء التراث والغيرة عليه .

وبعد ، فقد آن الاوان أن تسود روح التعاون بين المؤلف والناشر، وبين الناشرين انفسهم ، ليس عن طريق عقد الندوات والملتقيات فحسب ، واصدار توصيات يظل أكثرها حبرا على ورق، بل لابد كذلك من اتخاذ خطوات بناءة على مستوى العالم العربي ، من أجل التعجيل بالوحدة الثقافية ، في انتظار الوحدة الكبرى . وهذه الوحدة الثقافية يمكن أن نعجل بها عن طريق عقد اتفاقيات للنشر المشترك ، وتنظيم شبكات التوزيع في جميع انحاء البلاد العربية ، وتبادل المعلومات بشأن الكفاءات المتوفرة في مجال التاليف والترجمة ، والقضاء على الفوضى السائدة في مجال احياء التراث ، وسن قوانين صارمة لمعاقبة المزورين بدون هوادة .

الجزائر